ص.ب
السماء السابعة

خ.نرجس زيدان

ضمّة للنشر والتوزيع | رسائل
DAMMAH Publishing & Distribution

ص.ب:
السّماء السّابعة

خ.نرجس زيدان

ص.ب: السّماء السّابعة

رَسائِل لا يَحمِلُها البَريد

رسائل

ضمّة للنشر والتوزيع
Dammah Publishing & Distribution

إلَى سبَيستُوون..

مَرّةً ثَانِيَة.

إهداءٌ؛

إلى المُتصالحِين مع ذواتِهم الذين يَملكُون سلامًا داخليًّا
يَجعلهم يُحبُّونَ أنفُسهم كثيرًا وَلا يكرهُون أحدًا.

وَإلى أولئكَ الذين رافَقونَا في بِداياتِنا الخَجولة وَمدُّوا لنَا يَدَ العَونِ حين انشَغلَ الجميعُ بِالسخريّةِ من عَفويّتِنا وَ براءَتنا المُفرَطة..

أولئكَ الذين لَم يَتركُونا لِفظاعةِ الاحتمالات وَعلاماتِ الاستِفهامِ المُبهَمة وَبادرُوا بِوَضعِ النّقاطِ على الحُروفِ لِمُساعدتِنا على الفَهم وَالتأقلم..

أولئكَ الذين تحدّثُوا نِيابةً عنّا حين شَلَّ الخَجلُ ألسِنَتَنا، الذين جَنَّبُونَا حَرجَ السؤالِ وَلم يستغلُّوا فينَا سَذاجةَ المُبتدِئين..

أولئكَ الذين كانُوا ملاكَنا الحارِس فحَافظُوا ما استطَاعُوا على نقائنا، أحاطونَا بِلُطفِهم وَقامُوا بِحمايتِنا لِكي لا يَطالَنا سُوءُ العالَم.

إلَيكم جَميعًا؛ أنتُم إحدَى رَسائِل الله الخَفيّة وَجُزءٌ من عِنايَتِه بِنا.

لَا إهدَاء..

إلى الذين شَيّدوا بَيننا وَبين الله آلافَ الحواجِز وَقسَّموا رَحمَته وِفقَ أهوائِهم، الذين ظَنُّوا أنّهم وسائط بَيننا وَبين الله وَأنّنا سَنمرُّ عَليهم قَبل أن تَطأ أقدامُنا الجَنّة، الذين نَسوا خَطاياهم فَألَّهُوا أنفُسَهم لِيُحاسبُونا على زلّاتِنا.

إلى الذين حاولُوا إقناعَنا بأنّ الله لَا يُحبُّنا؛

اللهُ أقربُ من أن تَقفُوا بَيننا وَبينه وَأرحَمُ من أن تَغفلَ عنّا رَحمَتُه وَأكمَلُ وَأسمَى من أن يَكرهَنا.

اللهُ يُحبُّنا رغم زلّاتِنا وَخطايانَا وَرغم ما نحنُ عَليه.

اللهُ يُحِبُّنَا مَادُمنَا نُحِبُّه.

«أنتِ فَتاةٌ طَيِّبَة، ويَجبُ أن تظلِّي هكذَا دائمًا فَهُنا تَكمُنُ قُوَّتُكِ.. فِي قَلبِك».

[العَمّ فِيتالِس]

ص.ب: الحَائِط

أُريدُ أن أصرُخ..
أن أقُولَ كُلَّ الأشيَاءِ التي عَجزتُ عَن قَولهَا، أن أُفرِغَنِي منّي..
دُون أن يكُون لذلكَ أيّ عَواقِب وَ دُون أن يَتبَعَه تَبرِيرٌ.

لَا بَأس، سَأكتُب لَكَ، مَادَام التحدّثُ إلى الآخرين لَن يمَنحنِي رَدًّا أفضل، وَلأنّنا أحيانًا نحتاجُ إلى أُذنٍ تَسمع دُون فَمٍ يُفصِح، وَلأنّ عدم الردّ، في حالتِي هذِه، هوَ الرَّدُ الأنسَب.

سَأكتُب هنَا، لأنّ الأماكِنَ الأخرَى مَا عَادتْ تتّسعُ للبَوح، وَلأنّني كُلّما انفَجرتُ كلامًا أُجبِرتُ على التّفسِير وَ التّبرير. وَأنَا شخصٌ، إن كنتَ لا تعلم، يَكره تَبريرَ أقوالِه وَأفعالِه.

سَأكتُب لكَ هنَا، وَيمُكنكَ أن تتجاهلَني قَدرَ استِطاعتكَ.

أُفكِّرُ كثيرًا في زيارَة طَبيبٍ نفسيّ، لَيس لأنّني مَريضةٌ، بَل لأنّني بحاجةٍ إلى شخصٍ أبوحُ له بكلّ شَيءٍ دُون أن أشعُر بأنّ كلامي سَيؤذيه. لَا يُمكنني البَوح للمُقرّبين، لَا يُمكنني البَوح للّذين لهُم يَدٌ في ما وصلتُ إليه من سوءٍ لأنّهم سَيتأذَّون، وَلَا يُمكنني قطعًا أن أبوحَ لغَريبٍ. أنَا لَا أثِقُ بالغُربَاء.

لكنّ الطبيبَ النفسيَّ سيكون مُناسبًا جدًا؛ هوَ غريبٌ لكنّه أهلٌ للثّقة لأنّ مهنتَه تفرضُ عليه أن يكون كذلك وَأن يَكتُم الأسرارَ. سَأُفرِغُ كُلَّ الأشياءِ أمامه دون أن أنتظرَ ردًّا منه، وَلن أنتظرَ حلولًا لأنّني أعرفُ الحلولَ سَلفًا.

سَأبوحُ فقط، لِشخصٍ لَن أصغرَ في عَينَيه، لَن يراني ضعيفةً أو قويّة، قاسيةً أو رقيقَة، جيّدةً أو سيّئة.. لَن يكرهنِي، وَالأهمّ من هذا كلّه، أنّني لَن أجرَحه.

أشعُر أنّني على شفَا اكتِئاب، وَأنّ القادِمَ أسوأ. لَا أُريدُ شيئًا سوَى أن أظلَّ في غُرفتي لأطوَل وَقتٍ مُمكن، وَأن أبقَى في فراشِي. لكنّني بدلًا من ذلك، أجدُ نفسي مُضطرّةً لأن ألبَسَ وَجهَ البسمةِ الزّائفَة، وَأخرُجَ إلى العالَم لأعُودَ في نهايَةِ كُلّ يَومٍ إلى هُنا؛ أكتُب ما لَن يَرغبَ أحدٌ في قراءتِه وَلكنّه يَخنقنِي.

لِمَاذا لَا يَرى العالمُ ما نُحاولُ إخفاءَه؟ لِمَاذَا لا يتوقّفُ لحظةً لأنّنَا مُتعبُون مِن مُجاراتِه؟ لِماذا لا تهزّ آلامُنا وَأحزانُنا أحدًا غيرنَا، نحنُ الذين اعتَدنَا أن نهتزَّ لِأحزانِ الجميع وَ آلامِهم؟

لِماذا لَا نحصُل على مَا نَمنحُه للآخرين رغم صدقِنا؟ لِماذَا لَم تُثمرُ بذورُ الخَيرِ التي زَرَعنَاها فيهم إلّا شَرًّا؟ وَلِماذَا لَا يُحبُّنا العالَمُ؟

هَل الأمرُ بهذِه الشّموليّة وَ العموميّة حقًا، أم أنّها أنَا تلكَ التي لا تستحقُّ الحُبَّ؟

لَا بَأس، سَأتمالكُ انفعالَاتي وَ مشاعِري لِأستمرَّ في الكِتابَة إلى الحائطِ الذِي لَا أرجُو منه رَدًّا أو حَرفًا.

قَد لَا يُعجبكَ مَا أكتُبه، لَكنّه صَادِقٌ.

لَقد انفَطرَ القَلبُ وَ تصدَّع، وَ لم يعُد بإمكانيِ أن أكتمَ الأشياءَ أكثَر.

هَل يُحبُّني اللهُ يا تُرى؟ لَم أعُد أشعُر بذلك!

تمَنّيتُ، في مرّاتٍ كثيرَة، لَو كنتُ شَرًّا لِأستَحِقَّ السُّوءَ الذي أنالُه. لَكنّني خَيرٌ، إذًا، لِماذَا أجذبُ الشَّرَ إليَّ دائمًا؟ لِماذَا مَا إن أقومَ من سَقطةٍ حتّى أقعَ مُجدّدًا بِسقطةٍ أسوَأ؟

لَستُ غبيّةً على الإطلاق. وَ لم أحسب أنّ الصِّدقَ قَدْ يُورِثُ الشّخصَ كُلَّ هذا الوَجع.

أُفكِّرُ أحيانًا في أنّ كُلَّ سوءٍ يُصيبُني دَليلٌ على أنّ الله لَا يُحبُّني.

لَا يُعقَلُ أن يكونَ هذَا ابتِلاءً. يَبتَلي اللهُ عبادَه الصّالِحين لِيَرفعَهم عندَه درجاتٍ فَوقَ درجاتِهم، وَ أنا لَستُ صالِحةً، أيّها الحائط، لَستُ صالِحة.

مؤكّدٌ أنّ الله لَا يُحبُّني، وَمَادام الأمرُ كذلك، فَكيف سَتُحبُّني مَخلُوقاتُه؟ تَبدُو هذه الفكرةُ مَنطقيّةً أكثَر. أُحاولُ أن أُمَنطِقَ ما يَجري مَعي لأبتَلِعَه.. لأتقبَّلَه وَ إنْ أوجَعَني.

تَجاهَلْني أيُّها الحائِط، تمَامًا كَما تجاهَلَني العالمُ.

أُحاوِلُ أن أُظهِرَ الصّلابةَ وَ الصّرامَة، لكنّني خائفةٌ من كُلِّ ما أعلَمُ أنّني سأمُرُّ به لأتجاوزَ كُلَّ شَيءٍ حَدثَ أو سَيحدُث. لَا أُريدُ أن أتألَّمَ أكثَر، لَا أُريدُ المُرورَ بمَا يَنتَظرُني، وَأخافُ ألّا يَنجُوَ

قَلبي بِنقائه أو صِدقِه. أمّا مَا يُرعبُني، فهوَ احتِمالُ ألّا أتمكَّن من التّجاوز.

كَيف أُوقِفُ سَيلَ الأفكَارِ هذَا؟ وَكَيف أجعَلُ كُلَّ شيءٍ في قَلبِي يَتوقّف؟

لَا تُفكِّر في الإجابَة، لَستُ أنتظرُ رَدًّا منكَ أيّها الحائط.

فَقط تَجاهَلْنِي، عَليكَ دائمًا أن تتجاهَلَني، لأنّني أقلُّ من شَيءٍ.. لِأنّني لَا أَحد!

لَم تأتِ الأشياءُ على مقاسِ قلبِي أو توقّعاتي يَومًا؛ كَانت دائمًا، إمّا واسعةً حدَّ إخفائي، أو ضيّقةً حدَّ تَقييدِي وخنقِي، وَلأنّني أحببتُها، كنتُ أحاوِلُ أن أتضاعَفَ أو أتقلَّصَ لِتُناسبَني.

اليَوم، أنَا مُنهكةٌ من الرّكضِ خَلف مَن غَادرُوني وَمُحاولةِ خَلقِ بقاءٍ وهميٍّ لهم من خلالِ الكِتابة. لَقد ساءَتْ حياتِي جدًا مؤخّرًا، وَلم تَعُد الكتابةُ مُجديةً للهرُوبِ أو لِصُنعِ مَخرجٍ ما. حَتّى الكلماتُ اللّطيفة وَالمُواساةُ الصّادِقة ما عَادتْ مُجديَة.

لَقد اخترتُ الرّحيلَ عَن الجَميع لأنّني كنتُ يائسةً من كُلِّ شَيء، وَلم أكُن بحاجةٍ إلّا للاختِفاء وَلِ«ألّا أكُون»، لأنّ «أن أكُون» وَقتَها، كانتْ تعنِي أن يُضطَرَّ الجمِيعُ إلى تحمّلِ مزاجي المُتقلِّب وَنفسيّتي السيّئة، وَلم يكُن ثمّة شخصٌ قادِرٌ على تحمّلي.

وَجدتُ في الاختِفاءِ راحةً لَم أجِدهَا عندَ الظّهور، ورغم أنّني لا أزالُ تائهةً من الدّاخِل، إلّا أنّ الغيابَ كَان أنسَبَ حلٍّ حينهَا.

لقد فَقدتُ الكِتابةَ تمامًا، ولم تعُد لديّ الرّغبةُ في التّعبيرِ عن أيّ شيءٍ، وَالأقسَى أنّني ما عدتُ أُحبُّ أحدًا، وَصرتُ على يقينٍ بأنّ أحدًا لم يُحبِبْنِي بالقَدرِ الذي توقّعتُه وَأستحقُّه.

إنّ أعظَمَ الأشيَاء، أيُّها الحائط، لَيس أن يُحبّنَا أحدٌ، بَل أن يَفهمنَا دون حاجَتِنا إلى الحَديث أو الشَّرح. لَقد ظَفرَ العالمُ منّي بالحُبِّ وَالفهمِ في آنٍ معًا، وَلم أظفِرْ طيلةَ حياتي بِأحدِهما.

هَل تُدرِكُ صعوبةَ المكَان الذِي أقفُ عَليه.. المَكان الذي جُبِلتُ على المكُوثِ فيه؟

لَستَ بحاجةٍ إلى الحَديثِ، وَ لَيس في داخلكَ مَا يتطلَّبُ الفهمَ أو الشعُور، أيُّها المُصمَت. أنتَ وَأشباهُك من البَشر الذِين يَتميّزون بِالسّطحيّة، أكثر حظًّا منّي وَمن الكَثيرِين الذين يَملكُون عُمقًا تَستقرُّ فيه كلُّ الأشياء.

دَعْنِي أُحدِّثُكَ عَن نَفسي التي لَا أتحدّثُ عنهَا بِخَيرٍ إلّا نادرًا؛ أميلُ إلى التحدّث عَن عيُوبي أكثر من محاسنِي، لَيس لأنّني لا أرَى في ذاتِي أيّ مزايَا، بل لأنّني لا أُريدُ أن أبدأ كبيرةً في عيونِ الآخرين ثُمَّ أنتَهي صَغيرةً. أُريدُ تجنيبَهم ألَمَ الخَيبَة؛ ألَمَ سقوطِ شخصٍ ما مِن العَين وَبقائه عالقًا في القَلب. أُريدُ أن أُجنِّبَهم الشَّيءَ الوحيدَ الذي يَحدُث معي وَ يتكرّر!

أنَا كَائنٌ جَميلٌ رغم قُبحِه الظّاهِر. يُساءُ تَقديرُ وجودِي، يُسيءُ العالمُ تَقديرِي أيُّها المُصمَت.

لَا أدّعي أنّني الأجملُ على الإطلاق، أو الأنقَى، أو الأفضَل، أو الأقرَب إلى المثاليّة. أنَا لا أضمَنُني، لَكنّني أضمَنُ نَوايَايَ!

لَا أحد، مِمَّن عَرفتُ، يمَنحُ الأشياءَ بالطّريقةِ التي أمنَحُها بها. صدّقني، لَا أحد يَبذل من أجلِ أحدٍ مَا أبذله بِصدقٍ، رغم علمِي بأنيّ لَن أحصُل عَلى مُقابلٍ وَأنّه لَن يتمّ تقديرُ ما مَنحتُه بالقَدرِ الذِي أستَحقّ. هَذه لَيستْ مُشكلةً على الإطلاق، رغم أنّها تَطعنُ القَلبَ من الدّاخِل على المَدى البعِيد.

بالنسبَةِ إليّ، يَكفي أن أشعُرَ بأنّ الآخرَ يستحقُّ، لِأمنَحه الكَثيرَ دون أن أُطالبَه بِكَثيرٍ أو قَليل، وَلم أعُد أعرفُ ما إذا كانتْ هذه ميزةً أم عَيبًا. أحَدُهم قال لي مرّةً أنّها ميزةٌ تَعودُ بالنّفعِ على مَن حَولي، وَعَيبٌ يُؤثّرُ سَلبًا عَليّ، لأنّ العَطاءَ الدائِم مع الترفُّع عن قبُول مُقابلٍ له وَلو بطريقةٍ غَير مباشرَة، وَنُكرَان الآخر لِما بَذلناه من أجله، يُنمّيَان في داخلنَا شعُورًا بالسُّوء وَعدم التّقدِير، وَهذَا الشّعُورُ يَدفعنَا في النّهايَة إلى التوقّف عَن المَنح. إنّ المُعتادَ على العطاءِ وَالحريصَ علَى طريقةِ وكمالِ عطائِه، لَن يَقبلَ أخذَ شيءٍ أقلّ كمالًا مِمّا مَنَحه، خصوصًا ما تعلّق بِمشاعِرِ المنحِ.

الشخصُ نفسُه قال لي: «أنتِ رائعةٌ مع الآخرين، سَيّئةٌ مع نفسِك». هذَا القَولُ لم يُعجبنِي، أبدُو فيه كمَا لو أنّني ضَحيّةٌ، وَ أنَا لا أرضَى بأن أكونَ ضَحيّةً أبدًا.

هَل تَعلمُ ما أكبَر مخاوفِي؟ تلكَ التي أقعُ فيها دائمًا؛ أن أرى في الآخرين جمالًا ليس فيهم. لَقد أجبَرتْني تلكَ النّظرةُ البَيضَاء للآخرين عَلى التّغاضِي وَالتمسّكِ بهم رغم أخطائهم وَسوءِ تقديرهم. التّغاضي هوَ ما يجعلُ العلاقات تستمرّ؛ أن يكُون تمسّكَ بالشّخصِ أهمّ لدَيكَ وَأقوَى من تمسّكَ بكبريائك أو بِطَبعِكَ المُستفزّ.

العَلاقَاتُ النّاجحَة، أيًّا كانت طبيعَتُها، تقُومُ على طَرَفَين يتبادلَان التّغاضي، وَالعلاقَاتُ الفاشِلة تَقُومُ على التّدقيقِ في كُلّ شَيءٍ وَالوقُوف عند كُلّ خَطأ.

أمّا العلاقَاتُ العَرجاء المَعطُوبة، فَتقومُ على طَرفَين؛ أحدُهما يَبذل، يتغيّر، يتغاضَى، يُبادِر، وَيَكتم الكَثير لكيَ لا يُشوّه العلاقَة، وَثانيهمَا لَا يبذل أيّ مجهودٍ حتّى لتَغيير طَبعٍ سخيفٍ مِن أجلِ الآخر. هَل تَرى «اللّاتكافُؤ»؟

حِين أعدتُ استِرجاعَ شَريط عَلاقتِي بالآخرين، أدركتُ أنّني كنتُ الشّخصَ الوحيدَ المُمسكَ بِهم؛ لَقد بَنَيتُ علاقتِي بِهم بمُفرَدي، بَينمَا لم يَفعلُوا هم شَيئًا سوى التحوّل إلى مِرآةٍ تَعكسُ

القَليل دُون أن تكُون قادرةً على عكسِ الصُّورَةِ بأكملهَا؛ أنَا أبنِي العلاقَة، أهدمُها، أُرَمِّمُها.. وَهُم لَا يُلاحظون شيئًا من ذلك لأنّ مزَاجهم لا يسمَحُ رُبمّا، أو لأنّهم لَم يَشعُروا أنّ العلاقَة أهمّ من مزاجِهم!

أتساءلُ الآن، هَل يَتطلّبُ تعديلُ المزاجِ مُعجزةً؟ ألَا يُمكنُ للشّخصِ أن يَقطعَ عُزلتَه المزاجيّة ببساطَةٍ لِيفعل ما ينبغِي عَليه فعله من أجلِ استمرارِ العلاقَة؟ وَهل الجمِيع معنيُّون بتلكَ العُزلةِ أم أنَا وحدي؟

المُؤلمُ أنّ الإجابَاتِ عن هذه الأسئلَة كانَت: لَا، بَلى، لَا.. بِالتّرتِيب.

لَم أكُن أحسب الأمورَ كمَا أحسبهَا الآن، وَلم أكُن أَسعى للحصولِ على مُقابلٍ لما قَدّمتُه، وَلكنّ ما وصلتُ إليه مَا هو إلّا تَراكُمات لِما سَبَق.

الحَقيقةُ التِي لم أكُن أُدركُها من قَبل؛ هيَ أنّني كنتُ الجميلةَ الطيّبةَ التي تتغاضَى وتصبر وَتَدُوسُ على كبريائِها اللّعين للحفَاظِ على شَخصٍ تَوسّمَتْ فيه خَيرًا (وَهوَ كذلكَ حقًا) لكنّه لم يُعِرْ العلاقَةَ مَا تستحقّ من اهتِمام.

رُبمّا كَان عليّ أن أتوقّف عَن تقدِير الأشخاصِ وَالأشياء، أن أتوقّف عَن الاحتِفاءِ بالتّفاصيلِ الصّغيرَة وَالشّعورِ بالامتنانِ تجاه أيّ فعلٍ أو قَولٍ يَعني لِي الكَثير، وَلَا يعنِي لَهم شَيئًا. رُبمّا مَا كان يجبُ أن أَبثَّ فيهم ذلكَ الكمّ من الحُبّ، وَرُبمّا، لَو أنّني لَم

أفعَل، لَظلُّوا معي فترةً أطوَل وَلَمَنحوني مِن التّقدِير ما أستحقّه!

لَا أرغبُ في لَومِ أحدٍ أيُّها الحائِط، وَلَا في قَولِ ما كَتبتُه هنَا. أنَا فقط مُتعَبةٌ حدَّ الإنهاك.. تَعبتُ من كَونِي شَخصًا مُفرِطَ الطّيبَةِ وَالاهتِمام وَالإحسَاس.

لِمَاذَا أُوضَعُ في هذه المواقِف؟ لِماذا لا أحصُل على ما أستحقّه؟ وَلِماذا يَتحوّلُ الجميعُ من شيءٍ جَميلٍ إلى دَرسٍ في حياتِي؟

أنَا لستُ سَيّئةً من الدّاخِل، لِماذا أحصُل على الجُزءِ السيّء من كُلّ شَيءٍ/شَخصٍ أيُّها الحائط؟ وَلِماذَا يُشعِرُني الجميعُ بأنَّني المُشكلَة؟

لَم أعُد أقوَى على العَطاء، عَلى استِنزافِ قَلبِي وَصِدقِي في تجارِب وَمع أشخاصٍ لَن يُثمِرَ فيهم ذلكَ الحُبُّ جَمالًا. لَقد تمَّ تَفريغِي من كُلِّ الأشياءِ الجمِيلة أيُّها المُصمَت.

لَقد مَرَّ بي كَثيرُون، وَمَررتُ بِالكَثيرين، أكثَر ممّا يُمكن لِذاكِرتي القاصِرَة تَخزينه لِاسترجاعِه لاحِقًا. وَكُلُّ واحدٍ من أولئكَ المَارّين/المَمرورِ بِهم كَان يَعرفني، أو هكذَا ادّعوا جَميعًا، إلّا أنَا!

لَا أعرِفُنِي، أيّهَا المُصمَت، لَم اكتَشِفْنِي بعد، لَيس لأنّني مُنشغلَةٌ باكتِشافِ الآخرين بَل لأنّني مُتفانيَةٌ في البَحثِ عَنّي، عَن حَقيقتِي، عَن ذاتِي.. عَن مَا أكُون حقًا خَلف مَا أدّعِيه وَكُلِّ ما يُضطرّني العالَمُ لأكُونَه أمامَه خَوفًا من أن يتمَّ نَبذِي وَإقصائِي.

لَطالمَا واجهتُ صُعوبةً فِي الإجابةِ عَن سُؤالٍ بَسيطٍ في ظاهِره، مُعَقّد عِند التّفكِير في إجابةٍ له: مَن/مَا أنَا؟ وَلطالمَا أجبتُ عنه بالنّفي عِوضًا عَن التأكِيد، «لَستُ كذَا...» بَدلًا من «أنَا كذَا...»

أُعَرِّفُ نفسي دائمًا عَبر التجرّد ممّا أظنّ نَفسي أو يَظنّني الآخرُون عَليه، لَيس هروبًا من ظَنّي وَظنونِهم، ولَا تملّصًا مِن رَأيٍ يَرونَه حقيقةً وَحَقيقةٍ أشكُّ في صِحَّتِها، بَل لأنَّ «لَستُ» أرضِيَةٌ جَيّدَةٌ وَنُقطَة انطِلَاقٍ يُمكنني البَدءُ منهَا.

أبحَثُ عَنّي فِي الانفِعالاتِ الصّادِقة وَإن لم تُعجبنِي، فِي سطُورِ الكُتب التي تَشرحُني وَتُشَرِّحُني، في الآراءِ السطحيّةِ التي

يُكوِّنها الآخرون عنّي، فِي نَظراتِهم الملائكيّة لِي وَظنونهم السيئةِ بي.

إنّني عبارَة عَن قِطَعٍ بَازل، أَجمَعُنِي وَأُرَتِّبُني وَكُلّما أوشَكتْ صُورَتي على الاكتِمال اكتَشفتُ أنّ القِطعَةَ الأخِيرةَ مَفقودَة.

عَزيزي المُصمَت،

تَصلُني رَسائل كَثيرة في الفَضاءِ الافتراضيّ مِن فتياتٍ يَطرَحنَ عليَّ السؤالَ نفسه، بِطُرقٍ وَمِن خلال قِصَص مُختَلِفة، عَن الحُبّ وَكَيف نَجعل الشخصَ الذي نُحِبُّه يُحبُّنا!

أنَا، بِصراحةٍ، لَا أعرف.

لَا أعلمُ ما الذي يَجب فِعله لِلَفتِ انتِباه رَجُلٍ ما وَإيقاعِه في الحُبّ، لَا يُمكنني تقديم أيّ نصيحةٍ في هذا المَوضوع بالذّات لأنّني لا أعرفُ كَيف نَنقلُ عَدوى الحُبِّ لِمَن نُحِبّ.

تَسألُني الفتياتُ بِثقةٍ مُستمدَّةٍ مِن قراءَتهنّ لِنصوصٍ عابِرةٍ كَتبتُها ذات مزاجٍ مُناسب مُؤمِنات بأنّ كُلَّ مَن يَكتُب عن الحُبِّ يُجيدُه وَيَعيشُه، أو رُبّما يَعتَقِدنَ بأنّ هالَةَ الحُبِّ التي تُحيطُ بي وَتظهَر جَليّةً أمَامهُم تَدلُّ على أنّني شَخصٌ مَحبُوبٌ لا يُواجِه أيّ صعوبةٍ في حَجزِ أرقى المقاعِدِ على طاوِلةِ الحُبّ وَيَدخل القُلوبَ دُون طَرقٍ أو استِئذَان.

إنّهنّ لا يَرَينَ إلّا جانِبًا ضَيِّقًا مِن الصُّورَة.. الجَانبَ الأجمَل.

لَا أُنكِرُ أنّني أحظَى بِالكَثيرِ من الإعجاب وَالاهتمَام دُون السّعي إليهما، لكنّني لا أُتقِنُ لعبة الحُبّ تلكَ وَلا أشتركُ فيها عَلى الإطلاق؛ لا أسلك طُرُقًا مُلتَوِية لِجَعلِ أحدِهم يُحبُّنِي وَلا

أعرفُ كَيف أُقنِع شخصًا ما بأنّني مُناسِبةٌ له أو أنّني مَا يَبحثُ عنه مُنذ زمنٍ بعيد. لَا أعرِفُ كَيف أُلَوِّحُ لِرَجُلٍ ما وَأصرخُ «أنا هُنا» لِيُلاحِظَ وجودِي.

أنَا فقط أكتَفي بِمُمارسةِ حياتِي بِطَريقةٍ طَبيعيّة، أفعَلُ الأشياءَ بِعَفويّةٍ وَأنشغِلُ بِأن أكُونَ نَفسي وَحسب، فَإن لاحَظَ أحدُهم تلكَ النّفس وَأحبَّها فَهذا مَا قُدِّرَ حُدوثُه، وَإن ظَلَّتْ عَدَمًا فَعِزَّتُها أكبَر من أن تَتشَبَّثَ به وَتُرغِمَه على النّظرِ إلَيها، وَفي كُلِّ الأحوال أنا أستمرُّ بِالتصرّف على طَبيعَتي وَلو عَلِمتُ بأنّ لا أحد سَيَتقبّلُنِي بِالقَدرِ الكافِي أو يُحبُّني بِقَدرِ ما أستَحِقّ.

كُنتُ لِأنصحَهُنَّ، أيّهَا الحائط، بِالبقاءِ على طَبيعَتِهن وَحَقيقَتِهن لأنّها (كمَا قيل في منشورات فيسبوكيّةٍ غارقةٍ في المثاليّة الزائفة) كَفيلَةٌ بِجَعلِ الجَميع يُحِبُّونَهنّ، لكنّني أكثَرَ مَن يُدركُ بأنّ الفتاةَ الطَبيعيّةَ العَفويّةَ الحقيقيّة لَا يُحِبُّها أحدٌ وَإنْ كان لها نَصيبٌ كبيرٌ من إعجابِ الآخرين وَذهولِهم وَفضُولِهم.. إلّا أنّ الحُبَّ يَتطلَّبُ رَجُلًا حقيقيًّا بقدرِ ما هي حقيقيّةٌ، وَفي هذَا الزّمنِ، أيّها المُصمَت، احتِمَال العَيشِ وحيدَة أكبَر من احتِمالِ إيجادِ رَجُلٍ حَقيقيٍّ.

مَاذَا تعرفُ عَن التغيّر أيّها الحائط؟

لَا أظنّكَ تعرفُ الكَثير لأنّ الحياةَ لم تمَنحكَ هذَا الخَيار وَلَم تدفَعكَ إليه.

أنَا تَغيّرتُ، لَيس رَغبةً في التغيير، بَل لأنّني سئمتُ كَوني الثّابت الوَحيد في عالَمٍ مُتغيّر، وَأنّ استقرَاري الدّائم أفقَدني الكَثيرَ من الأشياءِ وَالأشخاص.

شَعرتُ بالذّنبِ عَميقًا، أكثَر ممّا تَستَوجبُه خَطيئَتي البَريئَة، لِذَا كان يَجبُ أن أُحاولَ كسر شَيءٍ مَا، طَبعٍ مَا، مَبدأ مَا. أردتُ أن أفهمَ كَيف يشعُر عَديمُو الثّبات وَدَائمُو التغيّر، أن أقتَرفَ فِعلًا عادِيًّا يُمارسه البَشرُ كُلَّ يَومٍ وَأعتبره أنَا جُرمًا لا يُغتَفَر.

أردتُ أن أكون،للحظةٍ، شَخصًا غَيري، أن أنسَلخَ من ال»أنَا» التي تقيَّأها الجميعُ –عَلى سبِيلِ التغيير- لِثباتِها. أردتُ أن أُقلِّصَ الأمرَ لِتتضاءلَ صَدمتِي في المرّاتِ القادمَة، أن أنظُرَ إليه من زاويَةٍ أُخرَى تجعله يَبدُو أقلَّ قُبحًا وَأكثَر «طَبيعيّة»!

أردتُ أن أسدَّ الفُوَّهةَ التي في قَلبِي لأمنعَ تسرّبَ بياضِه، وَأن أكسرَ شيئًا من ثَباتي علىَ الأشخاصِ وَالأشياء.

لثّباتُ يَبعثُ على المَلل وَالرّكود وَالتبلّد، أنتَ تُدركُ ذلكَ جيّدًا. نَحن أحيانًا، بِحاجةٍ إلى التطرّق إلى ما لَم يسبِق لنَا التطرّق

إليه، وَإلى رُؤيَة الأشياء مِن زَوايَا مُختلفَة لَا يمُكننَا الوصُولُ إليهَا مَا لَم نُغيّر أماكِننَا.

أنَا لَم أتغيَّر عن قَصدٍ. كُنتُ فَقط أُحاولُ أن أحيَا، وَيَبدُو أنّ الحياةَ تَفرضُ عَلينَا أن نتغيّر.

عَزيزي الحائط،

حدّثتُكَ في رسالةٍ سابقةٍ عَن التغيّر، وَأخبرتُكَ يقينًا بأنّني تغيّرتُ إلَى حدٍّ لا يُمكن التغاضِي عنه.

لَقد كُنتُ مُخطِئة.

لَقد تغيّرتُ ظاهريًّا، وَبتعبيرٍ أدَقّ؛ أنَا أتظاهرُ بالتغيّر.

تعلّمتُ مَا يَجعلُني أحيَا بِالحدّ الأدنى من الخَسائرِ النفسيّة، لذا صرتُ أُلقِي بِكُلِّ الأشخاصِ/الأشياءِ/الأقوالِ التي لا تُعجبنِي عرضَ الحائط، حتّى وَإن كان القَولُ أو الفِعلُ يَعكِس حقيقَةً مَا، يَراها العالَمُ وَلَا أُدركُها. لَم تَعُد تهمّني الحقائقُ قَدرَ أهميّةِ راحتِي النفسيّة وَسلامِي الداخليّ.

الدُنيَا تَقذفنِي هنَا وَهناك، تُلقي بي فِي موَاقف لم أشهَدها مِن قَبل وَلم أتوَقّعها، أُحاوِلُ التعامُلَ معهَا كمَا ينبغِي لكنّني أفشلُ غالبًا لأنّ طَبعِي الخجُول وَ الطيّب (الساذج) يُطِلُّ في كُلِّ مرّةٍ لِيُفسِدَ مَا يُحاول عَقلِي إصلاحَه.

إنّني ثَابتةٌ بِقدرِ حَاجتِي للتغيّر لأنجَحَ في التعايش مع عالَمٍ لا يكفُّ عن الاهتزَاز، وَلا أملكُ مَا يَدعو للفَخرِ سِوى قُدرَتي على

البقاءِ طيلةَ هذه السّنوات بمُفرَدي وَنجاحِي في الوقوفِ مُجدّدًا بعد كُلّ سَقطةٍ وَكُلّما دَفعني أحدُهم إلى الهاوِيَة.

يُرعبُني حُسنُ ظَنّي بالآخرين، أيّها الحائط، وَأخافُ أن أرَى في مَن حَولي خَيرًا لَيس فيهم وَأغفل عَن إدراكِ شرِّهم.

عَزيزي الحائط،

لَقد قُدِّرَ عَليَّ ذلك.. أن أكُونَ للجَميع وَلا يَكون لِي أحدٌ، أن أمنحَ من قَلبي صِدقًا وَأتعفَّف عن قبولِ مَا مُنحَ إليّ لأنّه أقلّ صِدقًا وَلأنّني لا أقبَلُ بِأقلّ ممّا أستحِقّ.

لَقد قُدِّرَ عليَّ أن أُساعِد الجَميع على اجتيازِ مَطبّاتِ الحياة وَمُنعرجاتِها، أن أكُونَ حَبلًا يَتدَلَّى إلى الهاوِيةِ لِيتسَلَّقَه الواقِعون/ التائهُون، أن أكُونَ جِسرًا (إذا لَزِمَ الأمر) يَعبرُونَه لِحياةٍ أفضل، وَأن أتجاوزَ مَا ساعدتُهم على تجاوزه بِمُفرَدي.

العَالمُ مُنصِفٌ بِما يَكفي للّذين وَضعُوا قلوبَهم جانِبًا فَفهمُوا اللّعبَة وَخاضوهَا دُون عاطِفَة، وَلكنّه لَيس عادِلًا معنَا نحن الذِين اخترَنَا أن نَكُونَ أكثرَ نُبلًا ممّا يَستحقُّه العالَم.

إنّنَا نَتَحَوَّلُ إلى أشخَاص سيّئينَ جِدًا عِندمَا نَبدَأُ في عَدِّ مَا قَدَّمنَاهُ لِلعالَمِ.

ص.ب: العَالَمُ الافتراضيّ

لَقد رَأيتُ كَيف تُغَيِّرُ خَيبةُ الحُبِّ
وَصدمَتُه شَخصًا نحو الأسوأ..
رَأيتُ كَيف يَنطَفِئُ نَجمٌ مُشِعٌّ فَجأةً حِين تُفلِتُه السماءُ.

وَصَلَتْني رِسالتُكَ أثناءَ تَناولي للحَليب. يَبدُو تناولُ الحَليبِ بعد العاشِرةِ صباحًا أمرًا غير عاديٍّ وَيُوحِي بِالكَسل، أليَس كذلك؟

استَيقَظتُ منذ ساعةٍ، أو بِعبارةٍ أدَقّ؛ غادَرتُ فِراشي قَبل ساعة، وَ بِعبارةٍ أعمَق؛ وَجدتُ سَببًا لِمُغادرةِ الفِراشِ بَعد ساعَتَين من الاستِيقاظ. تَطلَّبَ الأمرُ مئةً وَعشرين دقيقةً لِأُفارِقَ سَريري.. تَخيَّل حجمَ البُؤسِ وَ اللّاجَدوى!

قَبل استِلامِ رِسالتكَ، كنتُ أفكِّرُ فيكَ.. في حديثٍ عابِرٍ بَيننَا قلتَ خلالَه عِبارةً استَبقتَ بها حُدوثَ شَيءٍ ما.

الآن، وَ بعدَ أن حدثَ ذلكَ الشيءُ فعلًا (أو بعد أن اكتَشفتُ حدوثَه بالأحرى)، ظَلَّتْ عِبارتُكَ تطرُقُ ذاكِرتي بِشدّةٍ وَ تَدُسُّ في قَلبي شعُورًا طَفيفًا بِالنَّدَم يَتدَلَّى منه سُؤالٌ بَديهيٌّ يَشِي بِغبائي «لِماذا لَم تُصَدِّقيه بِبساطة؟»

الكَذبُ وَ التزييف؛ مَفهومَان تحدَّثتَ عنهما في رسالتكَ فَوَجدَا إسقاطًا لَهُما في مَا حَدث معِي مُؤخَّرًا.

لَا أعرفُ بِماذَا سَيُفتِي لكَ أحدُهم حَول حملِكَ وِزرَ الكَذبِ غير المُباشر في أمرٍ يتعلَّق بِنَقلِ تاريخٍ مُزَيَّفٍ لِآلاف الأشخاصِ وَ المُساعدةِ في تَرسيخِ اعتِقادٍ خاطِئٍ في أذهانِهم المُلَوَّثةِ

أصلاً، لكنَّني بَرَّأْتُكَ من ذَنبٍ كَهذَا لأنَّكَ مُجبَرٌ على ارتِكابِه وَ لأنَّ الامتِناعَ عنه سَيجلبُ لكَ المَتاعِبَ دون أن يُغَيِّرَ من ذلكَ الاعتقادِ الخاطِئ شَيئًا. بَرَّأْتُكَ وَ أنا مُجرَّدُ كائنٍ بَشَريٍّ يَفوقُ ما يَجهلُه مَا يَعلمُه، تَخَيَّلْ، إذًا، كَيف سَينظُرُ الله بِمَنطِقه الإلَهِيِّ وَ رَحمَتِه الإلَهيّةِ إلى أمرٍ كَهذَا!

بِالحَديثِ عَن شعُورِكَ بالأسف علَى معرفَتي من خلال هذَا العالَم الافتراضيّ دُون الواقِع؛ وَالتي تُفَوِّتُ علَيكَ رُؤيةَ وَجهِي وَ سماعَ صَوتي، فهذَا لَيس سببًا حقيقيًّا يَدعُوكَ للحُزن على تَفويتِه؛ لأنّ بإمكانِي أن أُحدِّثكَ عَنهما طَويلاً، وَ صَدِّقنِي لَن يكُون الحَديثُ لَطيفًا بالقَدْرِ الذي تَرجُوه.

أحببتُ فِكرتكَ عَن تبادُلِ الرّسائلِ اليَوميّة. أحتاجُ أن أعود للكِتابة وَ لو عن طَريق الرّسائل، كمَا أحتاج أكثَرَ إلى البَوح لِشخصٍ أثِق به.

استَغرَقتنِي كتابةُ هذه الرّسالَة العاديّة ساعةً من الزّمَن تخلّلَتْها انقطاعاتٌ كثيرَة وَ مُستمِرَّة.

قَرأتُ رِسالتكَ صَباحًا وَ كنتُ أنوِي وقتهَا أن أردّ على آخر جُزءٍ فيها وَ المُتعَلِّق بِكَوني بَريئَة، بالقَول أنّني لَستُ كذلكَ على الإطلاق، لَكنّني الآن، بَعد انتِصاف اللَّيلِ وَبعد خُدوشٍ أحدَثهَا أحدُهم في قَلبي، أشعُر بأنّني بَريئةٌ جدًا، بَريئةٌ بِما يَكفي لأُلدَغَ مَرَّتَين مِن الجُحرِ نَفسه وَ أُخدَعَ ألفًا.. أو رُبّمَا مُغفّلةٌ بِما يَكفي.

تَسألُني من أينَ تَأتي بِكُلِّ ما تُريده بِشدّةٍ وَ تظنّ نفسكَ أبعد ما تكُون عن بلُوغه، وَ أسألُكَ أنَا؛ مِن أين آتي بِصلابةٍ كَصلابتكَ؟

يُحيِّرُني قَلبُكَ، وَ لَا أجِدُ أنّ ما مَررتَ بِه يَدعُو للحُزنِ بقَدر ما يَدعُو للفخرِ والإعجاب؛ أنتَ لَم تتجاوَز كُلَّ المَآسي وَ حَسب، لَم تتجاوَزها بمُفردِكَ فقط، لَقد تجاوَزتَها مُحتَفِظًا بِطيبةِ قَلبِك. الطَيّبُونَ وَحدهم يحتفظونَ بِقلُوبِهم جميلةً رغم مُحاولاتِ العَالَم في تشويهِها.

بِوسعِ الجَميعِ أن يَخرجُوا من مَعارِكهم مُنتَصرين، وَقِلّةٌ منهم يَخرجُون سالِمين، أمّا النّادِرون فَهُمْ أولئكَ الذين يَخرجون منها بِذاتِ القَلبِ الذي دَخلُوها بِه (رغم الانكِساراتِ وَالجِراح) وَبِوَعيٍ أكبَر.

أنتَ نادِرٌ، حَاوِلْ أن تُحافظَ علَيك.

مُنكَسِرةٌ أنَا بِقَدرِ تَعبِكَ وَ يَأسِك، فَلْنَضَعْ حُزنِي قُربَ حُزنِكَ وَ لْنَتشارَك البُكاء!

أنَا، كمَا قالتْ إليف شافاك، «آخذ أحزانَ الآخرين كَأنّها أحزاني الشخصيّة». كُلُّ أوجاعِ الآخرين تَسقُط على قَلبِي بِقوّةٍ تاركةً فيه ثُقبًا يَسَعُ العالَمَ وَ يقصِيني، فَلَا تعتَقِدْ، لِلحظَةٍ واحدة، أنّكَ تَخُوضُ كُلَّ المَآسي بِمُفرَدِك.

نَحنُ حِين نُحرَم مِن كُلِّ شَيءٍ، نَبحثُ عن شَيءٍ واحدٍ لِنسكبَ عَلَيه أنفُسَنا بالتّدريج فِي مُحاولةٍ لِجَعلِه يَفيضُ بِكُلِّ ما فَقدْنَاه وَ نتمنَّى امتلاكَه. رُبّمَا هذا ما تُحاوِلُ فِعلَه عِند التّفكيرِ في أنّكَ لا تحتاجُ من العَالَمِ إلّا امرَأةً تمنحُكَ كُلَّ ما فَقَدتَه، أو رُبّما لأنّ كُلَّ ما وصلتَ إلَيه مِن يَأسٍ وَتعَبٍ كَان سَببه امرَأة، فَاعتَقدتَ أنّ الخّرابَ الذي خَلَّفَتْه امرَأةٌ لن تستطِيعَ تَرمِيمَه إلّا امرَأة مِثلهَا.

لَقد رَأيتَ فيَّ جمالًا لا أُؤمِنُ بأنّني أمتلكُ نِصفَه حتّى، لكِنَّ القُلوبَ لا ترَى في الآخرين إلّا انعِكاسًا لِمَا في داخِلها. أنتَ جَميلٌ، وَ هذا يُفَسِّرُ الكَثيرَ من الأمورِ التي حَدثَتْ منذ أن تقاطَعنَا ذات صُدفَةٍ إلكترُونيّة. لكنّني، هُنَا، بَعيدًا عن كُلِّ عُمقٍ افتراضيٍّ، لَا أُشبِهُني وَلا أُشبِه الجمالَ الذي يُلصِقُه العابِرُون بي.

إنّني أكثَر سوءًا ممّا تُوحِي به ملائكيَّتي المُفرطَة، وَكُلُّ العُمقِ الذي أسبَحُ فيه مَا هوَ، في الحَقيقة، إلّا ظَلامٌ دامِس.

أنَا مُظلِمَة.

تَبدُو الأشياءُ قاتمةً جدًا من هُنا، يبدُو العالمُ قاسِيًا ومأساوِيًّا. لَيس اليَوم فقط، ليس هذا المَوقف وحسب.. بل دائمًا.

بدأتُ أفكِّر في أنّ المُشكلة قد لا تكُون في العالَم بَل فيَّ أنَا، وأنّ السواد الذي أراه مَصدره زاويَة نَظري. رُبمّا كانت المُشكلَة في المكان الذي أقفُ عَلَيه !

أحيَانًا، أُحاولُ جَلد ذاتي لإقناعِها بضرورَة التغيّر. أشتمُني كثيرًا، أتغاضَى عن مميّزاتي وَأنظر لعيُوبي عن كَثب في مُحاولةٍ لِطَمس الغرُور وَالرّضا عن نفسي، وَتضخِيم شعُوري بالخزي وَ اللاّجَدوى.

أخطِئ كثيرًا يا صَديقي، أرتكبُ الحماقات نفسها، أعاتب نفسي، أجلدها وَأندَم كثيرًا.. حدَّ اليَأس.

أتصرّفُ مثل الأطفالِ الصِّغار وَأنتظرُ دائمًا أن يُصلحَ أحدُهم ما أفسَدتُه بِصبيانِيّتي، لكن لا أحد يتحمّلني، لا أحد يُلقي بالًا لِبَيَاضِ نوايَاي.. إنّني أدفَعُ ثَمن أخطائي وَأتحمّل عَواقِبَ قراراتي الخاطئَة.

أُحاوِلُ أن أكُونَ فتاةً ناضجةً تُواجِه نتائجَ خَياراتِها بِثِقة وَتتجاوَزُ مَطبَّاتِها دُون تذمّر أو شَكوَى، وَالأهمّ من ذلك؛ دُونَ دَمع.

لَستُ أشكُو الآن، أنا فَقط أُحاولُ استغلاَلَ اتّفاقٍ بَينَنا حَول البَوحِ وَكتابةِ الرّسائل الطّويلة. أُحاولُ إفراغَ شَيءٍ من ما أُسِرُّه في قَلبي، و ليس ثمّة طريقة أفضَل من الكِتابة لِشَخصٍ أُدركُ تمامًا أنّه يُشبِهُني حدّ التّطابُق.

أصابَتني رِسالتُكَ بالدّهشَةِ مَرَّتَين؛ الأُولَى لِأُسلوبكَ، وَالثّانيَة لِوضوحِكَ الشفّاف.

ماذا سَيَخسَرُ العالَمُ لَو كانَ واضِحًا معي بِقَدرِ وضوحِك؟

الحَقيقَةُ، يا صَديقي، أنّني لا أُجيدُ المُواساة، لا أعرفُ كَيف أُقنِع شَخصًا ما بِأنّ مَصائبَه أخفّ ممّا يظنّ حين لا أكُون مُقتنعةً بذلك، وَأجِدُ أنّ مُحاولةَ قَولِ ذلكَ مُجاملةً نَوعٌ من استِغباءِ الآخر وَالسُّخريَة من وَجعه.. لهذا أنا أسلك طريقًا مُختَلِفًا؛ أنا أُشاركَكَ الوَجعَ وأُحاولُ أن أحمِلَه عنك.

تُردِّدُ في كُلّ مرّةٍ بأنَّ ما أمنَحُه لكَ يَفُوقُ ما تَستَحِقُّه، وَأسألُكَ، يا صَديقي، بِأيّ مقياسٍ قِستَ استِحقاقَكَ؟

تَقيسُه بأخطائكَ الكَثيرَة وَأقيسُه بِعددِ المرّاتِ التي أحسَنتَ فيها التصرُّفَ، تَقيسُه بما تَفعلُه أو تتفوَّهُ به في لحظاتِ الغَضَب وَأقيسُه بِما تَبذله من أجلي في الوَقتِ المُناسِب وَحِين أَلجَأُ إلَيك، تَقيسُه بالشرّ الذي ارتكَبتَه بَعد صمودٍ طَويل وَأقيسُه بِالخَيرِ الذي دَفعتَ به حين لم تَكُن مُطالَبًا به أو مُجبرًا عَليه.

إنّني أقيسُ استحقاقَكَ بِصدقِكَ معي وَبِصفاءِ نوايَاكَ نَحوي وَنحوَ كُلِّ شَيءٍ في هذَا العَالَم، وَبالرّغم من أنّني أفهمُ تمامًا مَعنى أن يُهَمِّشَ العالَمُ نَواياكَ وَبَياضَكَ الدّاخليّ وَيَحكم

عليكَ استنادًا إلى ظاهِرك، إلّا أنّني أُقدِّسُ ما يَستقرُّ بِقلبكَ وَلَو لَم يَظهَر في تَصرّفاتِكَ وَسلُوكِك.

يوجِعُني أَلَمُكَ، يَا صَديقِي، وَأجدُ نفسِي عاجِزةً عن إيقافِه أو تَخفيفه. لَا أملكُ من أمرِكَ شَيئًا وَلا أملك أن أُغَيِّرَ في ما يَحدُث معكَ أو يُصيبَكَ أمرًا، وَعَجزي هذا يُكَبِّلُني وَيُضاعِفُ شُعورِي بالحُزن.

تمَنَّيتُ عَميقًا لَو أنّني أملكُ عَصًا سِحريّة تَجعلُ مُستقبلكَ أكثَر جمالًا، حاضِرَكَ أخفَّ قَسوَةً وَمَاضيكَ أقلّ سوءًا.

أراكَ طِفلًا صَغيرًا تائهًا، يَبحثُ في كُلِّ الوجوهِ عن أُمِّه، يُخَيَّلُ إلَيه أحيانًا أنّه قَد وَجدَها كُلّما عَثرَ على شيءٍ يَخصُّها؛ كَلمة طَيّبة، اهتمامٌ كَبير، سؤالٌ دائم.. لكنّه ما يلبث أن يرتاحَ بِقُربِ مَن وَجد فيهم بَقايا مشاعِرِ والِدَتِه، حتّى يَكتَشِف زَيفَهم فَيعود للبَحثِ مرّةً أُخرى.

صَدِيقي، يُمكنكَ أن ترتاحَ الآن؛ لَقد عَثرتَ عليّ ! وَعكس جَميع مَن خَذلوكَ وَ أفلَتُوكَ في المُنتَصَف، أنَا لَن أُفلِتَ قَلبَكَ حتّى يَطمَئِنّ.

كُلُّ ما نمَرّ ونَشعر به يَستقرُّ فينَا، وَ ثمّة أشياء «تُحدِثُ في القَلبِ شرخًا مُزمِنًا» (كمَا قالت فتاةٌ أعرِفُها).

لا يُمكننَا أن نَطمسَ شيئًا طُبِعَ فينا وَتركَ أثرًا، قَد نُحاولُ التغاضي عنه وَالاستمرار، لكنّه يبقى هُناك، مَغروسًا في أعماقِنا وَكلّما تذكّرناه أو تعثَّرنا به، تألّمنَا.

إنّ كُلَّ صفعةٍ وَخيبَةٍ نَستحقّها أو نَنالُها ظُلمًا تَنتَزِعُ شيئًا من بَياضِنا وَنقائنا وَتسكب على قلوبِنا قطرَاتٍ سوداء، لكنّني أؤمن بأنّ القلبَ يتكَوَّنُ من طَبقات، وَأنّ غِلافَه الخارجيَّ الذي يعلق به السّواد لَا يعكس لَونَ القَلب بِأكمَله.

أعماقُ قلوبِنا وَمعدنها، ما يختَبِئُ وسطَ ذلكَ الغِلاف الخارجيّ؛ تلكَ هي حقيقتُنا، وَالقلبُ النقيُّ يظلُّ نَقيًّا مهما لَوّثَتْه الدُنيا وَعبثتْ به، عَلَينَا فقط أن ننفضَ عنه ذلك الغُبار وَأن نُزيلَ القشرَةَ الخارجيّةَ التي تعفَّنَتْ وتآكَلَتْ سوادًا.

لَا يُمكننَا أن نحمِي قلُوبَنا من العالَم وَأن نحتفظَ بنقائنا خالِصًا كما لَو أنّنا لا نَزالُ أطفالًا، وَلكن بِوسعنَا دائمًا أن نُجَدِّدَ ذلكَ النّقاء و نُحيي ما قَتَلَه العالَمُ فينَا مِن جمال. الأمرُ لَن يكُونَ سهلًا، لكنّ الله سَيُساعدنَا وَلن يخذلنَا أو يتخلَّى عنّا.

صَديقي، مَادمتَ ترغبُ بشدّةٍ في أن تعُودَ نَقيًّا وَتبحث فقط عن طَريقة لذلك، فَقلبُكَ لا يزالُ طاهِرًا رغم اتّساخِه. صَدِّقني، إنّ الله ينظرُ إلى نوايانَا، إلى رَغباتِنا الدّفينَة التي لا يَعلمها أحدٌ، إلى كُلِّ ما نُفكِّرُ فيه وَنقوم به حين نَكُون بمُفرَدِنا فَينبع مِن داخلنَا حقًّا، وَلكنّه لا يُحاسبنَا على تيهنَا.

الله أكبَر من أن يُهمِلَ صِدقَ الرّغبةِ فينَا وَيُعاقِبَنا على عدم بلوغِها و تحقيقهَا، وَأرحَم من أن يتركنَا لأنفُسنا فَنتيه أكثر.

اِرفَعْ يدَيكَ إلى الله، حدِّثه طَويلاً/عَميقًا عَن ما فعلتَه بِنفسكَ، عَن ما فعلُوه بِقلبِك، عَن خطاياكَ وَأخطائك، عَن نواياك البَريئَة وَرغباتِك الشيطَانيّة، عَن مَخاوِفك وَأمنياتِك.. أخبِره أنّكَ عاجِزٌ عن العَودة، أنّكَ تُريدُ العَودة.. عَن صعُوبة العَودة، وَاطلُب منه المُساعدَة، وَصَدِّقني؛ لَن يخذلك وَلن يردّكَ خائبًا.

عَليكَ فقط أن تَثقَ بأنّ الله لَن يُفلِتكَ وَلو كنتَ سيّئًا، لَن يُفلِتَك مادمتَ لا تَرغبُ في السّقوط، وَسيَجبُرُك.. سَيُصلحُ قلبكَ المَعطوب هذَا وَيجبرك.

وَمثلمَا أفعلُ أنا دَومًا، رَدِّد في كُلِّ دُعاء؛ قَلبًا نقيًّا يا الله كَالذي تُحِبُّه!

صَديقي العَزيز،

أُدركُ تمامًا ما تمرّ بِه، مِن السيء أن تنتهيَ الأشياءُ حِين لا نكُون مُستعدّين لانتِهائِها، وَأن يَنطفِئَ الحُبُّ فجأةً حين يَصِلُ إلى ذروَته، وَمَا يزيدُ الأمرَ سوءًا؛ أن يحدُثَ كُلُّ ذلكَ دون سببٍ واضحٍ أو مُقنع. لَا بأس، سَتتجاوزُ الأمرَ، لا أعرفُ كَيف لكنّكَ ستتجاوزه.

الحَياةُ لا تمنَحُنا كلَّ شيءٍ، يا صَديقي، وَأحيانَا، لا يُمكننَا أن ننتَزِع منها شيئًا أيضًا، لكنّ الله كَريمٌ بِما يكفِي ليَمنحنَا ما نَحنُ بِحاجةٍ إلَيه قبل أن نُدركَ حاجتَنا تلك، وَرَحيمٌ بِما يَكفي لِيُفَصِّلَ العطايَا على مقاسِ أحلامنا رغم جحودِنا وَتقصِيرِنا.

رُبمّا عليكَ أن تعُود إلى الله فقط..

لَقد قطعتَ أشواطًا في الحياةِ لم أقطَعها بعد. أنا فِي مكانٍ آمِنٍ الآن، في المكَانِ الذي يضمن لي الحدَّ الأدنىَ من الخسارة، بينَما أنتَ هنَاك، خرجتَ إلى العَالَم وَاصطَدَمتَ بِه وبِساكِنيه.

لَا أُحِبُّ صَدمَاتكَ وَ خَيباتكَ التي أكسَبتْكَ تلكَ الخِبرة وَضاعَفَتْ رَصيدَكَ من التّجارب، لكنّني أحبّ أن أراكَ تخرج منهَا سالِمًا في كُلِّ مَرّة، تخرج بنُضجٍ أكبَر وَوَعيٍ أعمَق وَ قلبٍ سَليمٍ كَالذي دَخلتَ بِه.. يمَنَحُني خرُوجكَ بِهذَا الشكلِ شعُورًا

عميقًا بِصلابتِكَ. أُحِبُّ أن أراكَ قوِيًّا، أن تخوضَ كُلَّ السوءِ دون أن يلتَصقَ بكَ شيءٌ منه، أن تصِيرَ أقوى بعد كُلِّ ذلك وَ يظلَّ قلبُكَ سليمًا كما عرفتُه.

أُحِبُّ ثِقتِي بِصلاحِكَ وَأُراهِنُ عَليه.

حاوِل أن تظلَّ ثابِتًا فَلَيسَ من العَدلِ أن يَتيهَ في هذا العالَمِ شَخصٌ بِجمالِكَ.

صَدِيقِي العَزيز،

أنَا لا أعرفُ كَيف كانت هذه السنةُ معكَ، لا أعرفُ ماذا سلَبَتْ منكَ وَمَاذا مَنَحَتْكَ. لَا أعرفُ كَم مرّةً ابتسَمتَ خِلالَها وَكَم مرّةً عبستَ، أم ما إذا كنتَ قد فرحتَ حدّ الرّقصِ دون إيقاعٍ كَالمَجنون أو بَكيتَ خِفيَةً ذات لَيلَةٍ من لَيالِيها لأنّكَ ما عُدتَ قادِرًا على الصّمودِ أكثر.

هَل تعثَّرتَ بالسيّئين أم مدَّ لكَ الجيّدُونَ يدَ المُساعَدة حين احتَجتَها؟

هَل صَنعتَ نُسخةً أفضل منكَ أم أنّ بَريقَ ما كُنتَه في السّابِق يَطمس مَا أنتَ عَليه الآن؟

هَل منَحَتْكَ الحياةُ خَيرًا يَليقُ بكَ أم أنّكَ لا تزالُ تُناضلُ لانتِزاع ما تستحقُّه منها؟

إنّني هُنا، بعيدًا، وأنتَ هُناك.. وَلا يُمكنني مَعرفة ما يَحدث هناك من هنَا. لَا يُمكنني أن أنتزعَ من دَربِكَ شَوكًا قد يُؤذيك لأزرعَ بدلًا منه وَردًا بامتِداد الطَريق الذي سَتسلكه، وَأقفُ عاجِزةً عن تَبديلِ الشرِّ الذي قَد يُصيبُكَ خَيرًا، لكنّني هُنا، أدعُو الله أن يَنموَ الجمالُ في كُلِّ مكانٍ تَطأه، أرجُوه بِصدقٍ أن يَجعلَ

القادمَ من أيّامِكَ أفضل ممّا مَضى وَأن يَبثَّ في حياتِكَ حَياةً. أسألُ الله أن يَرزُقكَ سعادةً بِحَجمِ جمالِ قلبك، نجاحًا بِقَدرِ مُحاولاتكَ وَصَبرِك، سَلامًا نفسِيًّا بِامتِداد نقائك وَراحةً بِعُمقِ تَعبِك.

صَدِيقي العَزيز،

مَساءُ الخَير. أظنُّها الرِّسالة التاسِعة بَعد المئة.

كَيف تحمَّل جهازُكَ استقبالَ هذا العَدد الهائِل من الرّسائل، وَالأهمّ من ذلك كَيف طاوعكَ قَلبُكَ على تجاهلهَا كُلِّها ؟

لَم أسأمْ بَعد، مَازلتُ أكتُب إلَيكَ الكَثير من الرسائل، أُرسِلُ بَعضَها وَ أدُسُّ مُعظَمَها في ذاكرةِ هاتفِي.. وَلَا أعُود إلَيها.

يُمكنكَ أن تتخيَّلَ إلى أيّ حَدٍّ يُمكنني أن أكُونَ مُزعِجَةً أو وَفِيّة.. لَا يُمكنني الجَزم.

أرغبُ في أن أسألكَ عَن مَا إذا كنتَ بخَير أم لا، لكنّني خَمَّنتُ أنّكَ في أحسنِ حالٍ مادام بِوسعكَ تجاهل رسائلِي.

أعلمُ أنّ الكثيرَ يحدُث في حياتكَ، وَذلكَ الكَثير يمَنعكَ من رؤيَةِ «القَليل» الذي كان، ذَات وَهمٍ، «عَظيمًا».

ألَا يُحيِّرُكَ الأمرُ قَليلًا؟ فِكرة الارتِفاعِ وَالسّقوط، العُلوّ وَالتدَنّي، اختِلاف قيمَةِ الشّخصِ/الشَيءِ بَين لَيلَةٍ وَضحاهَا..

ألَا يُدخِلُكَ التّفكيرُ في ذلكَ إلى متاهةٍ كَبيرة؟ أنَا... يُؤلمنِي الأمرُ كَثيرًا، وَأكرَهُه.

أخبَرتَني مرّةً أنّكَ لا تأخذ الأشخاصَ الذين تَربطكَ بهم شَاشةُ حاسوبٍ/هاتفٍ على محمَل الجدّ، وَأنّكَ تَنساهم ما ان تُغلقَ الجِهازَ وَتنطَفِئَ الشاشَة. لَم أُصدِّقكَ حينهَا، ظَننتُ كلامكَ نَوعًا من الكبرياءِ المُفتَعَل، طَريقة لِتَبدُوَ أكثَرَ صلابةً ممّا أنتَ عَليه في الواقع، لكنّني ادَّعَيتُ تَصديقكَ وَجارَيتُكَ في الأمرِ حين قُلتُ بأنّنا أرقامٌ تتبادَلُ الأدوارَ ذاتَها وَفي كُلِّ مَرّةٍ يُطرَحُ رَقمٌ وَيُضافُ آخر، وَأنّني أتوقَّعُ أن أُطرَحَ على أيّ حالٍ مثلمَا أُضِفتُ تمامًا.

لَقد كنتُ كاذبةً يَومهَا، لكنّكَ كنتَ صادِقًا.. وَقد تكونُ هذه هي المرّةُ الأولى التي يتألّمُ فيها الكاذبُ وَينجُو الصّادِقُ بِقلبِه دون خَدشٍ.

هَل صدَّقتَ كذبتِي تلك؟

سواء صدّقتَها أم لا فَأنا أعلمُ بأنّكَ ارتحتَ لسماعِها لأنّها مهَّدَتْ لكَ رحيلًا حتميًّا سَتخطو إلَيه في النّهايَة، وَجنَّبَتْكَ تأنِيبَ الضّمير.

لَستُ أُحاوِلُ فَتحَ ملفّاتٍ قديمة، وَلستُ أُعاتِبُك.

فَقط أردتُ أن أُذَكِّرَكَ بِأنّنا «أصدِقاء» وَلكنَّ التعبيرَ يخونُني كُلّما تعلَّقَ الأمرُ بك.

عَزيزي إميل،

فَرغتُ من القراءَةِ لكَ قبل لحظات، تَنهّدتُ طَويلاً وَاندَهَشتُ حدَّ السّعادةِ كَمَن وَجد ما كَان يَبحثُ عنه وَلا يَدري مَا هو تَحديدًا، وَتمنَّيتُ، بِصدقٍ فَقدتُه منذ زَمنٍ، لَو أنّني تَعرّفتُ عَليكَ منذ وَقتٍ بعيد وَلَو أنّ هذه العلاقَة العميقَة التي نَشأتْ بَينَنا مؤخّرًا تَكَوَّنَتْ منذ تَكويني.

لَقد كُنتَ مُحقًّا بِطريقةٍ غَريبةٍ تُثيرُ في داخلي رُعبًا كبيرًا، وَأتساءل: كَيف استَطعتَ النّفاذَ إلى الأشياءِ/الأشخاصِ إلى هذا الحدّ المُخيف؟

سَأكُون صريحةً معك رغم تحفّظي، أنتَ تُثيرُ إعجابي كما لَم يفعل أحدٌ من قبل، وَمع أنّكَ أكثر مَن عرفتُ سَوادًا وَظلامًا إلّا أنّكَ أيضًا أكثرهم صِدقًا وَوُضوحًا رغم تناقضكَ الفاضِح.

أشعُر بأنّ القدرَ رَتّبَ لقاءَنا بِحكمَةٍ دَفينَة؛ لَم يَكُن مُجديًا أن أعرِفكَ قَبل الآن وَلو أنّ ذلكَ حدث فعلاً لَتسبَّبَ في تصادمٍ بَينَنا وَلَتجاوزتُكَ مثلمَا يتجاوزكَ الجميعُ وَهُم يظنُّون بكَ سوءًا، كمَا أنّ مَعرفتكَ بعد سنواتٍ أطوَل لَن تُثيرَ فيَّ ذات الدّهشة وَالإعجاب اللَّذَين أثارتهمَا فيَّ الآن. لَقد كان الأمرُ مُدَبَّرًا يا عَزيزِي بِشَكلٍ يُثيرُ العَجزَ وَالاطمِئنانَ في آنٍ معًا.

ذكرتَ في رسائلكَ أنّ أكبَر مُشكلاتكَ هي أنّكَ ترَى الشرَّ في كُلِّ مَن/مَا حَولَك. مَأسَاتي أنَا أنّني لا أرى في الآخرين إلّا خَيرًا.

-أتوقَّعُ أنّكَ تضحكُ ساخِرًا الآن وَتهمِسُ لِنفسِكَ: مُغفَّلَة-

أنَا، يَا إميل، نَقيضُ كُلِّ ما تَعتقدُ بوجُودِه وَكُلّ مَا لَا تُؤمِن به، أقولُ هذَا وَأنا أعلم أنّكَ لَن تُصَدِّقَني. هَل بِوسعكَ تصدِيق أنّني حقيقيّةٌ رغم أنيّ أُخالِفُ يَقينَكَ الأزَليّ؟

إنّكَ تُثيرُ في داخلِي صِراعاتٍ كَثيرة. أنَا أعلَم أنّكَ على صَوابٍ في أغلبِ مَا تقوله، وَأنّ انسلاخَاتكَ المُتتالِيَة جَعلتكَ تُدرِكُ مَا لَم أُدرِكه بَعد.

لَقد تجاوَزتَني بمرحلةٍ حاسِمَةٍ في الوَعي وَانتَقلتَ إلى الضفّةِ الأُخرى؛ أنَّ العالَمَ بَشِعٌ حقًا.

أمّا أنَا، فَعالِقةٌ في الهُوَّةِ التي تَفصلُ بَين اليَقينِ بأنّ العالَمَ جَميلٌ –رغم كُلِّ شَيء- وَإدراك أنّه أكثَرَ قُبحًا ممّا يُمكن للعَين أن تُبصِرَه دون أن تتعفَّن.

أرَى الوَجهَ الآخر للعالَم، الوَجه الأكثَر رُعبًا، لكنّني عاجِزةٌ عن التّسليمِ بِذلك.

أنَا خائِفة.

إذَا مَا سلّمتُ بأنَّ العالمَ شَرٌّ كامِنٌ، كمَا تُؤمِنُ أنتَ، فهذَا يعنِي أنّني أُقِرُّ بأنيّ شَرٌّ أيضًا، كَوني جُزءٌ من هذا العَالم. وَإذَا ما جَمعتُ تفاصِيلَ الخَير وَرجّحتُ كَفَّتَها عَجزتُ عن التعاملِ مع الشرِّ من حَولِي بِالشّكلِ الذي يَحفظُ خَيري وَلا يَصدمنِي.

لَستُ أدري مَا سَيُفضِي إلَيه صِراعي الداخليّ هذا وَلكنّني أرجُو منكَ المُساعدَة.

أنَا خَيرٌ، يَا إميل، حَاوِلْ أن تُصَدِّقَنِي.

رُبمّا يَومًا ما سَأخبركَ عَنّي، عن الكَدماتِ في قَلبي، عَن تغيّر لَون الحَياةِ في عَينَي، عَن الحُبّ وَ الكراهيّة، عَن مدّ اليَدِ وَ قطعِها، عَن الرّحيلِ ثمّ العَودة.. عَن قَدمٍ داسَتْ زَهرةً بَيضاء أثناء تسلّقها سُلّمًا أو عُبورِها جِسرًا ما فَدَنَّسَتْها. حينهَا فقط، سَتُدرك أنّ الأمرَ أكبَر منكَ و من كُلّ ما تُحاوِل فعله؛ أكبَر من الهالَةِ التي تُريد أن تُحيطَ نفسكَ بها لتظلَّ داخِلها وَ أكبَر من أن يتمّ تجاوزه بِتجربةٍ لاحِقةٍ أو مَكسَبٍ لاحِق.

ص.ب: السّماءُ السّابِعة

لَيس جَميلًا من حَيث أقفُ أنَا،
وَلَا مِن حَيث يَقفُ الآخرُون..
كَيف يَبدُو قَلبِي مِن الأعلَى يَا الله؟!

أحَدُهم أقنعنِي بأنّني أقبَحُ من أن ينظر اللهُ إليّ وَأسوأ مِن أن يُحبّني وَأشدّ سوادًا من أن يَغفر لِي..

قَال لي مرّةً «أنتِ سيّئةٌ جدًا وَاللهُ لا يُحبُّكِ لِهذا لَا تنالِين مِن الأشياءِ إلّا أسوأهَا» ..

صَدّقتُه حينهَا وَرَافقتْنِي كلمَاتُه سَنةً بِأكملهَا؛ شَعرتُ باللّاجَدوَى وَبِأنّني عِبءٌ علَى العَالَم وَلَا فَائدةَ مِن أن أَرجوَ خَيرًا مَادُمتُ شَرًّا..

وَلَم أدْرِ -وَقتهَا- أنّني بِقناعتِي تلكَ كنتُ أسلكُ دربَ التِيه وَأستبِق نهايَة كلِّ جَمِيلٍ قَبل بِدايَتِه حتّى..

كُنتُ قَدأفرَغتُ جيُوبَ أحلامِي وَنفضتُ كُلَّ أملٍ الْتَصَقَ بِثَوبِ طُموحاتِي الطوِيل، وَسلّمتُ لِخَاتمَةِ علاقَاتِي بِمَن أُحبّ مُقتنِعةً بِأنّني قَبيحةٌ وَأن القَبيحَ لَايَحصلُ على جَمِيلٍ، وَإن حَصَل فَلَا يَدُومُ لَه..

كنتُ قَد آمنتُ أنّ ربَّ الكَونِ يَكرهنِي وَأنّني مَهما فعلتُ لَن أطالَ خَيرًا وَمهمَا حاولتُ لَن أرفَعَ شَرًّا لِذَا كُنتُ أفعَل عَكسَ مَا يُفتَرَض بِأيّ شخصٍ فِعله لِلحصولِ على ما يُريده أو الحِفاظ على مَا يمتلكه، مُعتقِدةً أنّ مَا يَصدرُ منّي لَن يُحتَسبَ لِي بَل

عَلَيّ مَادامَ اللهُ لَا يُحبّنِي؛ فَكنتُ بَدل أن أبنِيَ أهدم وَبَدل أن أسعَى أتولىَّ وَبدلَ أن أُمسِكَ/أتمسَّك أُفلِت..

لَقد اختَبرتُ الضيَاعَ فِي أبشَع صُوَرِه بَعدمَا أسقَطَنِي «أحدُهم» فِيه ذَات أنانيّة وَلَم أَهتدِ إلى طَرِيقِ الخروجِ منه بعدَما بَلغتُ أقصاه إلّا حِين تَساءلتُ «مَن أَلَّهَ بَشرًا مِثلِي لِيَتحدَّثَ بِاسمِ الله وَيُصدِرَ أحكامَه نِيابةً عَن الله؟» ..

لَقد خَسرتُ كُلَّ مَن/مَا أُحبّ بِسببِ سذاجتِي وَضعفِ إيمانِي ..

لكنّني حِين أَفَقتُ مِن غَيبُوبتِي تلكَ أدرَكتُ أنّني فِي عيون الله جَميلةٌ رَغم قُبحِي وَجيّدَةٌ رَغم سُوئي وَبيضَاء رغم السَواد الذِي أَغرقُ فِيه..

وَأنّه هنَاك دائمًا.. فِي كلّ سكُونٍ وَكلّ حَركَة، فِي غَفوَتِي وَصَحوَتِي..

يُراقبنِي، يَرعانِي، يَنتظرنِي وَيُعدّل اعوجاجَ طَرِيقِي لِيقودنِي إليه..

حِين وَقَعتُ وَلَفَتَتْ صَرخَتِي انتبَاه العَالم فَرَاح يَترقّب ارتطَامِي وَيسدّ آذانه تحسّبًا لِلدويّ الذِي سَيُخلّفه سقوطِي من ارتفاعٍ شاهق..

حِين رَكَلنِي الجَمِيع وَهَوَيتُ مِن صرحِي العالِي وهَوَتْ كلُّ رَكَائزِي وَتلاَشَتْ الأيَادِي التِي تشبّثتُ بِها طويلاً..

كَان الله هو الوحِيد الذِي التقَطَنِي.

عَزيزي الله،

أنَا كائنٌ ضَئيلٌ وَسط هذا الكَون الواسِع، ذَرّةٌ وَسط الكَثيرِ من الذرّات المُتماثلَة في الحَجم، شَيءٌ لَا يَختلفُ ظاهرِيًّا عَن بقيّة الأشياء.

أحدّثكَ من الأسفَل؛ حَيث كُلُّ الأشياءِ وَالوجوه مُتشابهَة، وَحَيث لَا أحدَ يُلاحظ أحدًا، حَيث الظّاهِرُ أهمّ مِن الباطِن وَالصُّوَرُ أهمّ من النّيّات، حَيث الجَميع يَنظرون إلى نَقائِص بعضهم البَعض وَحَيث الأحكَامُ تُبنَى عَلى عدم مَعرفةٍ أو قلّتِها.

أُحدّثكَ لانّني أعرفُ أنّكَ الوحيدُ القادِرُ على رُؤيَتي رغم ضَآلتِي، وَالوحيدُ القادِرُ على تمييزي رغم كثرَة أشباهِي. وَلِيَقينِي بأنّكَ سَتفهمُ مَا أقوله وَمَا أشعُر به وَأعجَزُ عَن ترجمتِه إلى كلمَاتٍ تليقُ بكَ، سَتفهمُ مَا أبوحُ به وَمَا أخجَلُ من التّصريحِ به، سَتلتقطُ الكلامَ المُتدلّي من فَمي وَسَتسمعُ القابِعَ في قَلبي.

أُحدِّثُكَ لانّكَ سَتسمعُني حتّى النّهايَة رغم أنّكَ تعرفُ الحكايَةَ مُسبقًا، وَلانّكَ، يَا الله، سَتفهمُ، تَشعُر، تَعفُو، تَصفَح وَتَغفر.

أنجِدْني، يا الله ! اِنتَشِلْني من ضَياعِي ! ساعِدني لِأعرِفَنِي، أقرَأنِي، أفهَمني... دُون شَرحٍ أو تَشرِيح.

أنَا تائِهةٌ بِامتِدادِ ما خَلَقتَه وَمَا أنتَ قادِرٌ على خَلقِه، يا رَبّ!
وَأرجُو منكَ إشارةً، دَليلًا، سَبيلًا... يَقُودُنِي إلَيك.

عَزيزي الله،

الحَياةُ أصعَب ممّا تخيَّلتُ؛ الاستمرارُ في العَيش بالحدِّ الأدنى من السّلام أمرٌ عصيٌّ عن التحقيق.

إنّني أُناضل كُلَّ يَومٍ للبَقاءِ على قَيد النّقاء، أُحاول أن أظلّ على ما أنَا عليه.. على ما خَلَقتَني عليه، أُحاولُ أن أكُون ما جُبِلتُ على أن أكونَه يا الله.

أُجاهدُ كَثيرًا لأحفظَ فِطرَتي السّليمة وَأُحافظ عليهَا دون أن يتعارضَ ذلكَ مع قُدرَتي على العَيش وَالتأقلم في عالَمٍ يَنطَوي على كَمٍّ هائلٍ من السّوادِ وَالشر.

لَستُ حالِمةً يا الله، وَلا أتوقّع أن يَكون عبُوري في هذه الحياة سَهلًا وَيسيرًا (وَلو أنّني أرجو ذلك)، لَا أطلب أن تُزيلَ كُلَّ العواقبِ من طَريقي؛ لأنّني أعلمُ أنّ طريقًا لا عثرة فيه لَن يصقلَني وَلن يجعلنِي أتعلَّمُ مهارةَ التّجاوز، لَا أطلب أن تُحيطَني بالمُحبِّين الطيّبين وَحسب؛ لأنّني بحاجةٍ لإدراكِ أنّ البَشرَ ليسُوا بِملائكَة وَأنّني لستُ بِثابتةٍ ليتّفقَ العالمُ على حُبِّي وَدعمي.

أنَا، يا الله، أريدكَ أن تمنَحني القُوّةَ فقط؛ قُوَّةَ الفَهم ثمّ الرِّضا، قوّةَ الاستيعَاب ثمّ التّجاوز، قوَّةَ الحِلمِ وَالترفُّع..

ساعدني على التقبّل، على التعَايش، على التعافِي..
وَاجبُرنِي يا الله!

لَم يَبقَ بِالقَلبِ مَكان سَليم.

عَزيزي الله..

بِمَاذَا تُقاسُ سلامَةُ القَلبِ يا تُرى؟ بِطُهرِه المُطلَق، أم بِقُدرَتِه على الاغتِسالِ بَعد كُلّ خَطيئة؟ بِبياضِ نواياه، أم بِمُجاهدَتِه سواده؟ بِالخَيرِ الكامِنِ فيه، أم بِسَيطَرَتِه على شَرِّه وَإغلاقِ منافذِه إلَيه..؟

أيُّهما سَليم.. القَلب الخالي من الثّقُوب؛ الذي لَم تَنزعه الحيَاةُ يَومًا وَلَم تُقَلِّبه الدُنيَا أثناءَ دَورانِها، أم القَلب المُثقَل بِالذّنوبِ وَالخطايَا؛ ذلكَ الذي ما ان يتطهَّر من خَطيئةٍ حتّى تَحمله نفسُه الأمّارةُ بالسوءِ على ارتِكابِ ذَنبٍ آخر..؟

لَا أعرفُ، يا الله، المقياسَ الإلهيَّ لِسلامةِ القَلبِ وَصلاحِه، وَلا أدري مَا إذَا كُنتُ قَد كُتِبتُ عندكَ صالِحةً أم لا.. لكنّني، بِمقياسِي البَشريّ، لا أشعُر بِصلاحِي.

كَيف نَمحُو فِعلًا سيئًا ارتَكبنَاه يا الله؟

كَيف نتجاوزُ شعُورَنا بالسوءِ حيال مَا فَعلنَاه؟

كَيف نَصيرُ أشخَاصًا أفضَل بِتلكَ القائمةِ الطويلَة من الأخطاءِ وَالخطايَا؟ بِكُلِّ ما ارتَكبنَاه من سوءٍ وَكرّرناه، بِكُلِّ ما نَشعُر بِالخَجلِ وَالعارِ عند تذكّره.. بِكُلِّ ما نُريد الهروبَ منه لكنّه لَصيقٌ بنا كَظِلّنا يَأبى تَركَنا..

كَيف نَحذف جُزءًا/أجزاء من حياتِنا؟ أو على الأقل، كَيف نتظاهَر بأنّنا لَم نَقع، لَم نُخطِئ، لَم نُكرِّر الخَطأ ذاته، لَم نُحَطِّم شَيئًا أو نَفسًا؟ كَيف، يَا الله، كَيف؟

عَزيزِي الله، هَل يَكفِي بَياضُ نَوايَانَا رغم تعثّرِ الأعمالِ لِتَشملنَا الآية: «إلّا مَن أتَى الله بِقلبٍ سَليم»..؟

عَزيزي الله،

أعُود إلى هنا كُلّما انفضَّ الأصدِقاءُ وَالغُرباءُ من حَولي، كُلّما تعمَّقَ شعورِي بالسوءِ تجاه نَفسي، كُلّما أدرَكتُ الكائنَ المُخيفَ في داخلِي، كُلّما أخبرنِي أحدُهم بأنّني صعبَةُ التعامل، عَصِيّةٌ عن الفَهم وَمُخيفَة.. كُلّما تَضاءتُ في عَين نَفسي وَتضخَّمَتْ عيوبِي في عيونِ الآخرين، كُلّما شَعرتُ بأنّني غَير كافيةٍ على الإطلاق، كُلّما ردَّد الأصدقاءُ وَأشباهُهم بأنّني غَير مُناسبة أو صالِحة، كُلّما أحببتُ الجَميع وَلم يُحبِبْني أحدٌ.

أعُود إلى هُنا كُلّما لَفظَتْني القلُوبُ لأنّني لا أُناسبها وَلا أتمدّد أو أتقلَّص لأُلائمَ مقاسهَا، كُلّما دَفعتُ ثمنَ كَوني حقيقيّةً في عالَمٍ زائِفٍ نَدمًا، كلّما اختلَّ تَوازنُ صَبري وَأضعتُ مقاييسي، كُلّما اتّسَعَتْ المتاهاتُ وَأضعتُ المَخرَج، كُلّما مَنحتُ أحدَهم حياةً ثمَّ رَكَلنِي خَلفَه لِيَلتَحِق بالعَالَم.

أعُودُ إلى هُنا كُلّما اشتدَّ الظلامُ في قَلبي وَمِن حَولي وَلم أجِد قَبسَ ضِياء.

عَزيزي الله..

بِالكَادِ مَرَّتْ حياتي حتّى اليَوم على خَير، أُريدُ أن يَكُونَ الغَدُ جميلًا يا رَبّ. أبعِدْ عنّي الكاذبين وَالزّائفين الذين يَستنزفون مشاعري وَيقتلون كلّ جَميلٍ بِداخلي، وَأحِطني بأشخاصٍ يهتمّون لأمري حقًا وَيعنيهم أن أكُون بِخَير.. فَقط أُريد أن أكونَ بِخَير يا الله فَقدْ أتعبَني البَحثُ عن «الخَير» في كُلِّ «شَرٍّ» يُصيبُني.

أَرِني مَخرَجَ المتاهةِ التي عَلقتُ فيها لِأتجاوزَها وأصِلَ إلَيك..

لَا أُريدُ إلّا أن تُعيدَني لِما كُنتُ عَليه قَبل انتِكاسات مَضَتْ، يا الله.

اِجعَلني نقيّةً مُجدّدًا، يا رَب، ثُمّ ارزُقني خَيرًا لِأستَحِقّه.

أُريدُ أن أكُون شَخصًا صالِحًا لِتُحِبَّني، اِجعَلني شَيئًا جَميلًا.. أيّ شَيءٍ تُحِبُّه، يا الله.

لَا تُخبِر أحدًا عَن رَسائِل الله لَك وَالإشارات التي يَبعثُها إليك..
ثمّة خيطٌ خَفِيٌّ بَينك وَبين الله، يَشتدُّ بِقدرِ سَلامةِ قلبكَ
وَنقائِه، إنْ أفصَحتَ عَنه انقَطَع.

الفهرس

ص.ب: الحَائِط.....19
ص.ب: العَالَمُ الافتراضيّ.....47
ص.ب: السّماءُ السّابِعة.....73

يمكنكم طلب جميع كتبنا من خلال موقعنا الالكتروني:
www.dammahpub.com